البحث الثالث

آدم وحواء وذريتهما

بسم الحي العظيم:

(قال ملك النور السامي قوله فكان كل شيء ، نزل بثاهيل فرفع السماء وبسط الأرض ونادى ملائكة النار وهبت الشمس ضياء ، ووهب القمر بهاء والنجوم سناء ، ورفعت كلّ إلى مدار وتكونت العواصف والماء والنار وتكونت الثمار والأعناب والأشجار وكوّن الحيوان الأليف ، والوحش الكاسر ومن الترابِ والطين الأحمر ، والدم والمرارة ، ومن سر الكون ، جبل آدم وحواء... وحلت فيها نشمثا بقدرة ملك النور)... والحي المزكي.

أمر الحي العظيم الملاك بثاهيل أن يجبل آدم ، فصوروا آدم وعلى الأرض مددوه ولكن آدم لا نفس فيه، استعانوا بالأثير لعل إذا تسرب إلى عظامه بالمخ تتغلل القوة إليه فيقف منتصبًا على قدميه...

وبوميض النار استعانوا وبكل بخار الأنهار وبكل دخان النار بعد أن أطفأوها، حاولوا أن يولجوها في بدنه المسجى على الأرض ، لعل كفيه تنقبضان ، لعل جناحيه يخفقان، لعل الغضب يعصف بجناحيه، فيقف منتصبًا على قدميه، ولكن دون فائدة، فصعد الملاك بثاهيل إلى عالم الأنوار وطلب من الخالق الجبار... منحه الحي العظيم اسمًا حيًا به تكلم ، وبعمامته النورانية الطاهرة لف السرَّ الأعظم وأمر الحي العظيم الملائكة أن تحرس النشماثا ، ويبقى الملاك بثاهيل جاهلاً كيف النفس إلى الجسد هبطت.

وأمر الحي العظيم الملاك منادهي كبير الملائكة الأثريين أن يلج نشماثا في جسد آدم وليس سواه، فامتلأت عظامه ونطقت فيه إشعاعية الحي ففتح عينيه

واتخذ الملاك منادهي بأمر الحي العظيم هيئة آدم لكي لا يخاف ولا يفزع، وعلمه كل ما قال له الحي العظيم في علاه:

(ها أنا ذا يا آدم أمتلئ عطفًا عليك ، ليكن لك مقام بأمري وذرية تسري وماء يجري ، وحين يتم آدم مهمته في هذا العالم يصعد إلى عالم النور ليعود إلى مثيله أدكاس زيوا (آدم الخفي) ليحيا حياة ثانية ملاكًا فيها).

قال الحي وهو مستوٍ على عرشه بين أنواره :

(ليكن الموت من نصيب أهل الدنيا
أن آدم عاش ألف عام
فليخرج من جسده قبل أن يشيخ
وقبيل أن توهنه الأسقام
ونفذ الصوت
نحن نسميه الحق وأنتم تسمونه الموت).

أمر الحي العظيم الملاك صورئيل (عزرائيل) (انزل يا صورئيل إلى عالم الشر والنقصان، ناد آدم وعلمه الحكمة والإحسان، قل له: كنت أخرس فأنطقناك، وأصم فأسمعناك، وجاهلاً فعلمناك، ومستوحشًا فأنسناك).

قل له عشت ألف عام وآن لك أن تترك بلد الشر والآثام وتعود إلى بلد النور والسلام لا تعجز فتضام، ولا تهرم فتسام، غضب آدم وأربدت سيماه، ثم امتلأت بالحزن حناياه، واغرورقت بالدمع مقلتاه، واعول وبكى، وعلى الأرض ارتمى، وطوح بساعديه، وضرب أضلاعه بيديه... وخاطب خالقه لم أقضِ في هذا العالم سوى ألف عام، وأتمنى أن أعيش فيه ثانية ألف عام.

وصعد الملاك صورئيل سائلاً أمام الحي العظيم، الحي الأزلي القديم، قال ربي أنت بكل شيء عليم، أن آدم قد طاب له المقام في ذلك العالم وهو يلتمس من خالقه وباريه أن يطيل بقاءه فيه.

قال رب الجلالة في علاه يا صورئيل قل لآدم لا نريدك أن تهرم وأن تعجز فتظلم، قم يا آدم فمت كأنك لم تكن، لا تضعف ولا تهن.

طلب آدم من خالقه أن يفديه ولده شيتل لأنه أبن ثمانين عام ما عرف امرأة وليس له بنت أو غلام وبأمر من الحي العظيم ذهب الملاك، صورئيل إلى شيتل بن آدم ، فنزع شيتل جذع اللحم والدماء ولبس جذع النور والضياء، واعتمر العمامة النورانية الطاهرة، والثياب النورانية الباهرة وصعد إلى عالم الأنوار يحيط به الأثريون والأبرار، فتقاذفت شيتل رياح المعراج وصعد بين الرجم والسديم حتى وصل عالم الأنوار ليحيا حياة ثانية فيها، وطلب شيتل أن يراه أبوه في أي مقام أجلسوه، قال آدم لولده شيتل يا ولدي لا تسبق أباك، عد أنت وأذهب أنا هناك فقال أيها الشيخ الغرير، أيها العجوز الكبير، أرأيت قبلي جنيناً يولد ثم يعود لبطن أمه؟.

وانقضت ألف عام، وأتى رسول الحي إليه، يا آدم قم واخلع ثوب الطين الذي أنت فيه، فلست بعد الآن بملاقيه، فقد انتهى عمرك في هذا العالم... اعول آدم وبكى وناح وشكا، وقال للمخلص يا أبتا إن أتيت معك فدنياي من سائسها؟ وزوجتي من يؤانسها؟ وأغراسي التي أنا غارسها من حارسها، من يمد إليهم يد ويكون لهم سند؟ من يبذر البذور المباركات؟ من يحمل الماء من دجلة والفرات؟ من يعين التي تلد؟ من يلاقي الذي يفد؟.

يا آدم : لا تبتئس ولا تكتئب... فعالمك هذا عالم خرب، عالم زيف وكذب، بيوته مقبرة وطرقه مبعثرة، وديارة مقفرة، الأبناء بآبائهم يكفرون، والأخوة بينهم يقتتلون، البنات يكفرن أمهاتهن، والأخوات يأكلن لحم أخواتهن، الرجل يترك زوجته والمرأة تترك زوجها، أرامل ويتامى، فقم يا آدم واخرج من هذا العالم...

انزعج آدم فقال للمخلص لماذا أقلقتموني وفي هذا الجسد أدخلتموني مادام تعلمون أن العالم هكذا سيكون؟.

أيها المخلص إن أنا خرجت من هذا الكساء وأتيت معك فمن سيحرسه في يومه؟ ومن يوقظه من نومه؟ من يطعمه ومن يسقيه؟ وريب الدهر من يكن صاحبه فيه؟ من يدفع عنه الرعد إذا دمدم؟ ومن يبني هيكله إذا تهدم؟ من يهيء له محلا؟ من يصنع له ظلاً، من يمنع الشمس إذا تقع عليه؟ والرياح أن تسعى إليه والأتربة تملأ عينيه، والطيور إذا بنت أوكارها، من يذودها أن تطعم من لحي صغارها؟.

يا خالقي اجعل جسدي يأتي معي ويكون صديقي فلا أب ولا أم يأتيان معي، ولا ذهب ولا فضة في زوادتي... كم أنت يا آدم حزين، على جسد يملؤه الطين؟ يا آدم لا يصعد جسد إلى عليين، يا خالقي اسمحوا لحواء زوجتي أن تأتي في صحبتي فتكون لي أنسًا في طريقي، اسمحوا لأبنائي وبناتي أن يرافقوني في طريقي.

سمعت حواء فولولت باكية، قالت يا آدم أنا معك آتية، قال المخلص: لا جسد يصعد إلى بيت الحي، لا أب ولا أم، لا أخوة ولا أخوات، ولا أبناء ولا بنات، ولن يكون الذهب والفضة ملاذًا في بيت الحي، إنما ملاذ الإنسان عمله وصدقته، ووسمه وصباغته.

يا آدم إن إخوتك هم الأثريون الصادقون... وإنهم من أجلك صلاة عظيمة يصلون، يا آدم لم ينفعك شيء غير عملك الصالح، يا آدم الدهور كلها ستزول والمخلوقات ستزول تنضب الآبار، وتتهدم الجبال والآكام، تجد طلول وتمحي طلول، بابل تزول، والصين تحول ويذهب الفرس والروم والمغول، سيقتل الناس بعضهم بعضًا، وسيحكم في سفك دم ابن آدم، وشوه الوجوه التي هي كوجهه، سينادي على المجرمين، الزناة واللصوص، وعلى السحرة والمنجمين، ويدفعون إلى حرائق النار أجمعين، يومها تتزعزع التخوم، وتخلو السماء من النجوم والشمس والقمر يذهبان كل إلى مكان وكل من كانوا بربهم يكفرون، في أعماق الظلام يحشرون.

طوبى لك يا آدم ، فقد اصطفاك الرحمن ورفعك من عالم الأحزان، فلا تأسف على العالم الذي منه خرجت.

ذرية آدم :

أما ذرية آدم... ربما يسأل السائل كيف زوَّج آدم أولاده لبناته؟ هل زوَّج الأولاد البنات وخالف تعاليم ووصايا خالقه؟! وهذه البشرية كلها من أصول فاسدة لا سمح الله، كما يقول الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعري عن جهالة وهو الفيلسوف المقتدر :

إذ مـــــا ذكرنـــــا آدم وفعالـــــه

وتزويجـــه لابنيـــه بنتيـــه فـــي الخنـــا

علمنـــا بـــأن الخلـــق مـــن نســـل فـــاجرٍ

وأن جميـــع الخلـــق مـــن عنصـــر الزنـــا

والحقيقة كما تفسِّرها الفلسفة المندائية، كانت حواء تلد توأم ولدين أو بنتين، وعندما أراد آدم زواج أولاده دعى من الحي العظيم أن يساعده في هذا الأمر العظيم فأمر في علاه، وجاء نظراؤهم من عالم الأنوار، حيث أخذت البنات إلى عالم الأنوار وتزوجا من نظراء الأولاد، وجيء بالبنات النظيرات إلى آدم وتزوجن الأولاد. أي أن نظراء الأولاد تزوجوا البنات، ونظراء البنات تزوجوا الأولاد ، وبهذا تكاثرت ذرية آدم وابتهجت بهم الدنيا دون أن يخالفوا أمر الخالق.

ولهذا كنت أعتقد أن الفيلسوف الشاعر أبو العلاء عندما كتب كتابه المشهور رسالة الغفران قد قرأ الكنزا ربا فتوسعت دائرة معلوماته واستقر فكرًا ومعرفة، ولربما بتوجيه من صديقه الحميم أبو إسحاق الصابي الذين كان يجمعهما مجلس الشريف الرضي وعندما اختلف الشاعر أبو العلاء مع الشريف الرضي، تعال عليه الشريف مفتخرًا بحسبه ونسبه، فاغتاظ أبو العلاء وذكره بتزويج آدم ولديه

لبنتيه بالخنا، وأنهما من أصل فاسد، وكأن أبو العلاء لم يقرأ الكنزا ربا كاملاً، ولربما قرأ الخلق والتكوين فقط فتكونت له صورة ومعلومات وأفكار استفاد منها في فلسفته بتأليف كتابه المشهور الغفران الذي استفاد منه دانتي الشاعر الإيطالي الأصل في كتابه المعروف الكوميديا الإلهية.

وهذه شيء من الوصايا لآدم وذريته من خالقهم، يوصيهم بالعمل الصالح وأن هناك ثواب وحساب وأن الموت حق عليهم، وعليهم تهذيب أنفسهم وأن يسمعوا التعاليم ويطبقوها في حياتهم الخالية الفانية مرضاة لربهم ليهنئوا بحياة ثانية أبدية:

– كل من يولد يموت، وكل ما يصنع بالأيدي يفسد والعالم كله يفنى، فأين سر الإلوهية التي فيه إن كنتم تنظرون أن عكازتكم يوم الحساب أعمالكم التي عليها تستندون.

– ومن قلع شعرة على ميت فسيربط بجبل الظلام بحبل لا يبيد.

– كلما طالت أعماركم زادت خطاياكم، فلا تحزنوا على نشماثا إذا فارقت هذه الدنيا فمن الحزن تولد الأرواح الشريرة فتسبق نشماثا في عروجها، وتضايقها في دار الحساب.

– من أحب موتاه فليطلب لأنفسهم الرحمة، وأقيموا عليهم الصلاة والتسبيح، واقرأوا الابتهالات وأقيموا مسقثة الرحمة من أجلها، عندئذٍ يسير الضياء أمامها ويأتي النور وراءها، ورسل الحي عن يمينها وملائكة النور عن شمالها، فتنجو من دار الحساب ومن مراجل النار.

– علموا نشماثا أن لا ترتاب قلوبها واسمعوها لغة السلام؛ التسبيح الذي آتيتكم فتشهد قلوبها ويطمئن.

– طوبى لمن سمع وآمن أنه يصعد ظافرًا إلى بلد النور.

والحي المزكي.